

فَصَلُّ فِي تَعَلُّمِ الْأَدَبِ وَحُسْنِ السَّمْتِ وَالسَّيْرِ وَالْمُعَاشَرَةِ وَالْإِقْتِصَادِ [وَيُسْنُ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْأَدَبَ وَالسَّمْتَ وَالْفَضْلَ وَالْحَيَاءَ وَحُسْنَ السَّيْرِ شَرْعًا وَعُرْفًا] قَالَ أَحْمَدُ: تَنَا حَسَنٌ تَنَا زُهَيْرٌ تَنَا قَابُوسُ بْنُ أَبِي طَبِيَّانٍ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «إِنَّ الْهُدْيَ الصَّالِحَ وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ وَالْإِقْتِصَادَ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ» قَابُوسٌ مُخْتَلَفٌ فِيهِ. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنِ النَّفِيلِيِّ عَنِ زُهَيْرٍ قَالَ فِي النَّهَايَةِ: " الْهُدْيُ السَّيْرَةُ وَالْهَيْئَةُ وَالطَّرِيقَةُ " وَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ هَذِهِ الْخِلَالَ مِنْ شَمَائِلِ الْأَنْبِيَاءِ وَمِنْ جُمْلَةِ خِصَالِهِمْ وَأَنَّهَا جُزْءٌ مَعْلُومٌ مِنْ أَجْزَاءِ أَفْعَالِهِمْ. وَهَذَا الْخَبْرُ فِي الْمَوْطَأِ وَلَفْظُهُ «الْقَصْدُ وَالنُّوْدَةُ وَحُسْنُ السَّمْتِ» وَذَكَرَهُ. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرْجِسَ إِسْنَادًا جَيِّدًا وَقَالَ حَسَنٌ غَرِيبٌ وَفِيهِ «جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ» وَتَرَجَمَ أَبُو دَاوُدَ عَلَى الْحَدِيثَيْنِ الصَّحِيحَيْنِ الْمَشْهُورَيْنِ قَوْلَ أَنَسِ كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا مَشَى كَأَنَّهُ يَتَوَكَّأُ، وَبِالضَّمِّ جَمْعٌ صَبَبَ أَي فِي مَوْضِعٍ مُنْحَدِرٍ، وَقِيلَ: الصَّبُّ وَالصَّبُوبُ تَصَوُّبٌ نَهْرٌ أَوْ طَرِيقٌ. وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ قَالَ كَانُوا إِذَا اتُّوا الرَّجُلَ لِيَأْخُذُوا عَنْهُ نَظَرُوا إِلَى سَمْتِهِ وَإِلَى صِلَاتِهِ وَإِلَى حَالِهِ ثُمَّ يَأْخُذُونَ عَنْهُ وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْمَعْنَى عَنْ جَمَاعَةٍ. وَإِيَّاكَ. وَرُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِلسَّائِلِ ذَلِكَ وَرَوَى اللَّفْظَ الْأَوَّلَ عَنْهُ جَعْفَرُ وَالثَّانِي الْفَضْلُ بْنُ زِيَادٍ وَرَوَى الْخِلَالَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ لَا تَقُولُوا لِلسَّائِلِ بوركَ فِيكَ فَإِنَّهُ قَدْ سَأَلَ الْكَافِرُ وَالْمُسْلِمُ وَلَكِنْ قُولُوا رَزَقَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ. وَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ إِذَا ذُكِرَ أَحَدٌ عِنْدَهُ فِدْعًا لَهُ بَدَأَ بِنَفْسِهِ» إِسْنَادًا جَيِّدًا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «أَبْدَأُ بِنَفْسِكَ» وَظَاهِرُهُ يَفْتَضِي أَمْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ فِي بَابِ الْأَدَبِ: كَتَبَ أَحْمَدُ مَعِيَ كِتَابًا إِلَى رَجُلٍ فَأَمَرَنِي الرَّجُلُ فَقَرَأْتَهُ فَكَانَ فِيهِ وَكَفَانًا وَإِيَّاكَ كُلُّ مَهْمٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَكَرَ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ قَوْلَهُ «رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى» إِنَّهُ يُسْتَحَبُّ تَقْدِيمُ نَفْسِهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ وَأَنَّ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا الْمُسْتَحَبَّ تَقْدِيمَ غَيْرِهِ وَإِيثارَهُ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ} [الضحى: 10] قِيلَ طَالِبُ الْعِلْمِ وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ الْمُرَادُ بِهِ سَائِلُ الْبِرِّ وَالْمَعْنَى: لَا تَنْهَرُهُ إِمَّا أَنْ تُعْطِيَهُ وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّهُ رَدًّا لِيُنَا قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ وَالْبَغَوِيُّ: يُقَالُ نَهَرَهُ يَنْهَرُهُ إِذَا اسْتَقْبَلَهُ بِكَلَامٍ يَزْجُرُهُ أَنْتَهَى كَلَامُهُمَا فَهَذَا الْمُرَادُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. أَمَّا لَوْ رَدَّهُ بِلِينٍ فَلَمْ يَقْبَلْ وَأَلْحَ كَفَعَلَ بَعْضُ السُّؤَالِ سَقَطَ احْتِرَامُهُ وَيُؤَدَّبُ بِلُطْفٍ بِحَسَبِ مَا يَفْتَضِيهِ الْحَالُ وَالْمَصْلُحَةُ ثُمَّ قَدْ يُقَالُ هُوَ أَوْلَى مِنْ تَرْكِهِ وَالصَّبْرُ عَلَيْهِ، لَا سِيَّمَا إِنْ قَالَ أَوْ فَعَلَ مَا لَا يَنْبَغِي لِمَا فِيهِ مِنْ زَجْرِهِ وَتَهْذِيبِهِ وَتَقْوِيمِهِ فَهُوَ إِحْسَانٌ إِلَيْهِ مَعَ إِقَامَةِ الشَّرْعِ فِي عَقُوبَةِ الْمُعْتَدِي وَقَدْ يُقَالُ الصَّبْرُ عَلَيْهِ أَوْلَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ. لَا يَدْخُلُنكَ ضَجْرَةٌ مِنْ سَائِلٍ . فَلْخَيْرٌ دَهْرِكَ أَنْ تُرَى مَسْئُولًا لَا تَجِبُهُنَّ بِالرَّدِّ وَجَهٌ مُؤَمِّلٌ . فَبِقَاءِ عَزِّكَ أَنْ تُرَى مَأْمُولًا وَتَرَى الْعُبُوسَ عَلَى اللَّئِيمِ دَلِيلًا وَعَلِمٌ بِأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ صَائِرٌ . خَبْرًا فَكُنْ خَبْرًا يَرُوقُ جَمِيلًا وَيَقُولُ لِلْمُسَافِرِ سَفْرًا مَبَاحًا: أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ وَزُودَكَ اللَّهُ التَّقْوَى. وَقَالَ صَالِحٌ لِأَبِيهِ: الْمَرَأَةُ تَقُولُ لِأَبِيهَا: اللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ قَالَ لَوْ اسْتَوْدَعْتَهُ اللَّهُ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ، أَنْتَهَى كَلَامُهُ. وَفِي حَدِيثِ الدَّجَالِ «أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: اللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ». وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْهُ قَالَ «اسْتَأْذَنْتِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْعُمْرَةِ فَآذَنَ وَقَالَ: لَا تَسْنَأْ يَا أُخِي مِنْ دُعَائِكَ فَقَالَ: كَلِمَةٌ مَا يَسْرُرُنِي أَنْ لِي بِهَا الدُّنْيَا. « وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: «أَشْرِكُنَا يَا أُخِي فِي دُعَائِكَ». وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنُهُ وَزَادَ: " عَلَى وَلَدِهِ " وَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَلَفْظُ ابْنِ مَاجَةَ لِوَلَدِهِ وَأَبُو جَعْفَرٍ تَفَرَّدَ عَنْهُ يَحْيَى. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا «ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَةَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنُهُ وَعِنْدَهُ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مِمَّ خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ؟ قَالَ: " مِنْ الْمَاءِ ". وَقَرَّتْ عَيْنِي، فَأَنْبِئَنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ» إِسْنَادًا جَيِّدًا. وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِلرَّجُلِ أُودِعُكَ كَمَا «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُودِعُنَا فَيَقُولُ: أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ مَعْنَاهُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدِ الْخَطْمِيِّ الصَّحَابِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - . وَجَرَى ذِكْرُ الدِّينِ مَعَ الْوَدَائِعِ؛ لِأَنَّ السَّفَرَ قَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِإِهْمَالِ بَعْضِ الْأُمُورِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالدِّينِ فِدْعًا لَهُ بِالْمَعُونَةِ وَالتَّوْفِيقِ فِيهَا. ذَكَرَ ذَلِكَ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ. «وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُرِيدُ سَفْرًا فَزَوِّدْنِي قَالَ: زَوَّدَكَ اللَّهُ التَّقْوَى قَالَ: زَوِّدْنِي قَالَ: وَغَفَرَ ذَنْبَكَ قَالَ: زَوِّدْنِي قَالَ: وَيَسِّرْ لَكَ الْخَيْرَ حَيْثُ مَا كُنْتَ. وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ بَهْجَةِ الْمَجَالِسِ: إِذَا خَرَجَ أَحَدُكُمْ إِلَى سَفَرٍ فَلْيُودِعْ إِخْوَانَهُ فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ فِي دُعَائِهِمْ بَرَكَهًا قَالَ: وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: السُّنَّةُ إِذَا قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ سَفَرٍ أَنْ يَأْتِيَهُ إِخْوَانُهُ فَيَسْلَمُونَ عَلَيْهِ، وَإِذَا خَرَجَ إِلَى سَفَرٍ أَنْ يَأْتِيَهُمْ فَيُودِعُهُمْ وَيَعْنَمُ دُعَاءَهُمْ. وَقَدْ قِيلَ: فِرَاقُكَ مِثْلُ فِرَاقِ الْحَيَاةِ . وَفَقْدُكَ مِثْلُ افْتِقَادِ الدِّيمِ وَقِيلَ: عَلَيْكَ السَّلَامُ فَكَمْ مِنْ وَفَا . أَفَارِقُ مِنْكَ وَكَمْ مِنْ كَرَمٍ وَقِيلَ: لَمْ أَنَسْ يَوْمَ الرَّحِيلِ مَوْفِقَهَا . وَطَرَفُهَا فِي دُمُوعِهَا غَرِقَ وَقَوْلُهَا وَالرِّكَابُ وَاقِفَةٌ . تَتَرَكُنِي هَكَذَا وَتَنْطَلِقُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْفِرَاقِ وَإِنْ كَانَ . يُرِيدُ الرَّجُوعَ مُنْصَرِفًا وَقِيلَ: وَكُلُّ بَعِيرَتِهِ مُفْلِسٌ لَيْتَ رَجَعْتَ عَنْكَ أَجْسَامُنَا . لَقَدْ سَافَرْتَ مَعَكَ الْأَنْفُسُ وَقِيلَ: يَا رَاحِلَ الْعَيْسِ عَرِّجْ بِي أُوْدِعْهُمْ . يَا رَاحِلَ الْعَيْسِ فِي تَرَحُّالِكَ الْأَجَلُ يَا لَيْتَ شِعْرِي

لَطُولِ الْعَهْدِ مَا فَعَلُوا صَاحَ الْغُرَابُ بِوَشِكِ الْبَيْنِ فَارْتَحَلُوا . وَقَرَّبُوا الْعَيْسَ قَبْلَ الصُّبْحِ وَاحْتَمَلُوا وَغَادَرُوا الْقَلْبَ مَا تَهْدَأُ لَوَاعِجُهُ .
أَيْدِي النَّوَى بِزِنَادِ الشُّوقِ إِذْ رَحَلُوا مِنْهُ وَظَلَّ مُفَكِّرًا مُتَحِيرًا سَفْرًا وَحَقَّ لَهُ بِأَنْ يَنْطِيرًا وَدَعَّ أَعْرَابِيًّا رَجُلًا فَقَالَ: كَبَتَ اللَّهُ لَكَ كُلَّ عَدُوِّ
إِلَّا نَفْسَكَ، وَجَعَلَ خَيْرَ عَمَلِكَ مَا وَلِيَ أَجْلَكَ قَالَ الشَّاعِرُ: وَكُلُّ مُصِيبَاتِ الزَّمَانِ وَجَدْتَهَا . وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَرَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ: {سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}
[الزخرف: 13] {وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} [الزخرف: 14] . اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنْ الْعَمَلِ مَا تُحِبُّ
وَتَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ،